الموقع الجغرافي وانعكاسه على تاريخ ليبيا

أ. محمد حسين التركي
المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية

المقدمة:

إن الموقع الجغرافي لليبيا هام جداً، وأنها لم تفقد أهميتها في جميع الفترات التاريخية بل ازدادت مع الزمن، ومع تطور المواصلات والاتصالات والتكنولوجيا باعتبار أن بعض الدول يتأثر موقعها سلباً بالتغيرات والتقلبات التاريخية والتطور الذي يطرأ على وسائل المواصلات والتكنولوجيا ومما لاشك فيه أن ليبيا اكتسبت أهمية من خلال موقعها الفلكي والنسبي فالأول بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض والآخر بالنسبة للبحر والدول المقابلة وبالنسبة لليابسة والدول المجاورة لها، وقد أدرك ذلك الجغرافيين والرحالة والمؤرخين والساسة منذ أقدم العصور فهذا يعتبر واضحاً في كتابات المتقدمين والمتأخرين وفي توجهات السياسيين.

تكتسب ليبيا بُعداً إقليميا ودوليا، إذ تجاورها ستة دول افريقية أربعة منها عربية، كما أنها تربط المشرق العربي بمغربه، وموقعها في الحوض الأوسط للبحر المتوسط، وعلى ضفته الجنوبية يجعلها مقابلة لعدة دول اورو متوسطية، فكانت بذلك مسرحاً للهجرات وللتعامل الاقتصادي والسياسي وحوار ثقافي ساده طابع الحدة والحروب أحيانا، والعلاقات الودية وبناء المصالح المشتركة أحياناً أُخرى.

إن القرائن الجغرافية والأدلة التاريخية اللاحقة تؤكد على أهمية موقع ليبيا، واستمر ذلك إلى الوقت الحاضر، بالرغم من التطور الذي طرأ على وسائل المواصلات والاتصالات والتكنولوجيا، فأغلب الدول تفقد أهمية موقِعها نتيجة لهذه التطورات ويجب أن يكون محافظة الموقع على أهميته، مهمازاً يحرك الليبيين ويدفعهم باتجاه استثمار موقع بلادهم بما يخدم مصالحهم العليا، وذلك بالحرص على الإسراع والعمل من اجل تحقيق الاستقرار السياسي، حتى يتمكنوا من استعادة دورهم الذي لعبوه خلال الفترات التاريخية الماضية، وذلك بنسج علاقات مع الدول المجاورة والمقابلة، ومع دول أخرى تبحث عن الاستثمار، في الإمكان المهمة في العالم، فبإلاضافة للموقع والذي يجب أن ننظر إليه على أنه المورد الأساسي، والموارد الأخرى لاحقة به وذلك بما تتوفر عليه ليبيا من إمكانية زيادة المواني البحرية والجوية والموارد الطبيعية الكامنة في باطن الأرض، كما إنها واعِدة في مجالات الطاقات المتجددة من الرياح والطاقة الشمسية، بالإضافة للمساحة الشاسعة والتنوع المناخي، كل ذلك يمكنها من استعادة دورها في مجال التجارة الدولية، فهذه العوامل تدفع باتجاه تحقيق تنمية مستدامة.

يعتبر الموقع الجغرافي احد أهم العوامل التي تؤثر في اتجاهات السكان وسلوكهم وخصائصهم وعلاقاتهم ونشاطاتهم كما انه تترتب على الموقع آثار سياسية تنعكس على الدولة إيجابا وسلبا فعندما تتمكن الدولة من تحقيق الاستقرار الداخلي تتعزز علاقاتها بجيرانها بحيث يسودها تبادل المصالح وبناء العلاقات السياسية والاقتصادية مما ينعكس على الواقع الثقافي والاجتماعي بشكل ايجابي وبذلك تضمن الدولة التعامل الجيد في مجالها الإقليمي والدولي أما إذا لم تتمكن الدولة من بناء

علاقات جيدة مع جيرانها وفي محيطها الدولي فإن ذلك يزعزع أمنها ويعمق الخلافات الداخلية وتكون الدولة عرضة للفشل.

موقع ليبيا بالنسبة للعالم

موقع ليبيا بالنسبة لقارة إفريقيا

ليبيا التسمية والتاريخ:

أُستخدم الاسم منذ أقدم العصور التاريخية للدلالة على حدود جغرافية متعددة، حيث شمل ما كان معروفاً من قارة إفريقيا، فمثلاً استخدمه المصريون القدماء (4000 ق م) للدلالة على الشعوب الليبية التي تسكن الحدود الغربية لمصر، أما الإغريق (منتصف القرن السابع قبل الميلاد)[1] الذين خرجوا من جزرهم باتجاه ليبيا، فقد استعملوه للبقاع التي استوطنوها (المدن الخمس)[2] ثم اتسعت التسمية عندهم لتشمل كل ما عرفوه من مناطق في قارة أفريقيا فيما عدا مصر[3] بينما استخدمه الرومان للدلالة على جزء كبير من أفريقيا الشمالية دون تحديد جغرافي[4] كما ان بطليموس توافق مع الرومان حسب الخريطة التي وضعها عام 150ق م.

العالم عام 150 ميلادية تقريبا تبعا لبطليموس

الخريطة رقم (2)

عن: جوردن ايست الجغرافية توجه التاريخ. ص 26

وبعد ذلك انحصر اسم ليبيا في المغرب العربي [5] كما درج المسلمين بعد فتحهم لليبيا عام (22هـ:641م) على تسمية الأقاليم المكونة لليبيا طرابلس، برقة، فزان

وأحيانا يستعملون طرابلس للدلالة على الأقاليم الثلاثة كما درج العثمانيين على تسميتها طرابلس الغرب، تميزاً لها عن طرابلس الشام.

إن إطلاق اسم ليبيا بحدودها الجغرافية الحالية في مجال السياسة الدولية الحديثة بداء في القرن العشرين، وذلك خلال محاولات ايطاليا للسيطرة على ليبيا، حيث أصدرت مرسوماً يحمل الرقم 1133م والمؤرخ في 1. 8 .1912 م يتضمن انتداب قضاة للعمل في ليبيا[6] من هنا ترسخت هذه التسمية وشاع استعمالها في عالم السياسة بما يشمل الثلاثة أقاليم سالفة الذكر، والتي كانت في اغلب الفترات التاريخية تمثل وحدة سياسية واحدة.

الموقع الجغرافي :

تشغل مساحة ليبيا (1.665.000 كيلو متر مربع)[7] من شمال قارة أفريقيا، وتتمتع بساحل طويل في الحوض الأوسط للبحر المتوسط على ضفته الجنوبية، وهذا الساحل يمتد من الشرق إلى الغرب لمسافة (1900كيلو متر)، وتقابلها عدة دول اورومتوسطية على الضفة الشمالية لهذا البحر، وتمتد ليبيا من هذا البحر في الشمال حتى جمهوريتي تشاد والنيجر في الجنوب، ومن حدود مصر والسودان في الشرق حتى حدود تونس والجزائر في الغرب، وبذلك فهي تمتد تقريباً ما بين خطي طول 9ْ و25ْ شرقاً ، وإن أقصى امتداد لها من ناحية الشمال يصل إلى دائرتي عرض 33ْ شمالاً في إقليم الجبل الأخضر في الشمال الشرقي، وأقصى امتداد لها من ناحية الجنوب يصل إلي خط عرض 18ْ و 40ْ في طرفها الجنوبي الشرقي [8].

ليبيا المساحة والمناخ:

أسهمت المساحة الشاسعة لليبيا في تنوعها المناخي، الذي كان له بالغ الأثر على غزارة وجودة إنتاجها الزراعي، فالمساحة تؤثر في الوزن الاقتصادي والسياسي للدولة فكلما ازدادت المساحة وترابطت الأقاليم وتنوع المناخ والتُربة فهذا يساهم في تنوع الإنتاج الزراعي، ويسهل تسويقه ناهيك عن التراوث الطبيعية في باطن الأرض[9] وقد قامت الزراعة في ليبيا منذ العصور القديمة، وخاصة في فترتي الحضارة الجرمية في فزان، والحضارة الإغريقية في برقة، وقد أورد المؤرخ اليوناني ديودوروس الصقلي، أن الجزء القريب من قورينا تميز بتربة خصبة وبه محاصيل متنوعة، إذ لا ينتج الحنطة فحسب بل إن فيه مزارع شاسعة وبساتين زيتون وغابات لم يستنبتها أحد، وأنهاراً ذات نفع عظيم[10] كما انتعشت الزراعة في ليبيا بصفة استثنائية خلال العصور الإسلامية، حيث بدأت البلاد تنهض من جديد فأدى ذلك إلى كثرة المزارع والبساتين، التي اعتمدت على الآبار في مختلف المناطق الليبية وأدى بالتالي إلى كثرة الإنتاج.

ويذكر الجغرافيين والرحالة المسلمين أن برقة، كانت عامرة بصنوف الفواكه وتمتعت بتربة خصبة، وإن نبات السلفيوم كان أهم سلعة في برقة فالسلفيوم كان يباع بوزنة من الفضة، حيث أُستخدم استخداما طبياً، كما انتشرت مزارع الشعير والقمح بالجبل الغربي والأودية القريبة من مدينة طرابلس.

يلاحظ الناظر لخريطة ليبيا تنوع مظاهر السطح، من الساحل إلى الجبال إلى الأحواض المنخفضة التي نشأت فيها الكثير من الواحات [11].

ويمكننا أن نجمل القول أن مناطق ليبيا وواحاتها كانت تنتج زيت الزيتون والتمور والفواكه المختلفة والحبوب من شعير وقمح وذرة.

فمما سبق يتضح جلياً الأهمية الاقتصادية لليبيا، وذلك بفضل موقعها ومساحتها الشاسعة، مما أنعكس بشكل مباشر على جميع الفترات التاريخية التي مرت بها، فكانت دائماً عرضة للأطماع الأجنبية، ويتم غزوها و شن الحرب عليها كلما ضعفت أو حدث فيها فراغ سياسي.

المسالك الليبية:

إن المسارات قديمة وتبقى ممتدة إلى الوقت الحاضر، وهذا دليل على ما تلعبه التضاريس والظروف الطبيعية في تحديد هذه الطرق[12] وهذا لاحظته شخصياً وذلك عندما قمنا بتتبع طرق تجارة القوافل في ليبيا حيث كنت أحد أعضاء فر يق المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، بالتعاون مع فريق من قسم الجغرافية موفد من جامعة فرايبورغ الألمانية عام 2006م، فقد كانت الطرق الحديثة محاذية للطرق القديمة وفي بعض المراحل هي نفسها كما إن بعض الأماكن احتفظت بالأثر فتجد مسار القوافل واضحا.

إن التوغل العميق لخليج سرت من الناحية الشمالية وموقعه مقابل بحيرة تشاد في الجنوب يجعل الطريق الواصل بينهما أقصر الطرق إلى أفريقيا ويمر هذا الطريق بواحات فزان التي كانت بعض واحاتها مراكز لتجارة القوافل عبر العصور بالإضافة إلى الطرق ذات الاتجاه شمال جنوب هناك أيضاً الطرق ذات الاتجاه شرق غرب التي تمر بواحات فزان الرئيسية وتمر أيضا بالواحات الشرقية أوجله والكفرة والجغبوب وهي بذلك تربط بين المحيط الأطلس والبحر الأحمر [13] .

كانت طرق القوافل الرئيسية تمر بليبيا[14] مما تقدم يتضح أن ليبيا كانت جسراً رئيسا للعبور إلى أفريقيا كما أنها واسطة العقد بين المشرق العربي ومغربه ولذلك

ففد لعبت دوراً هاما في تاريخ الدولة العربية الإسلامية فعن طريقها تقدم العرب المسلمين لفتح بلدان المغرب فهي بذلك مدخلاً للإسلام وحضارته للمغرب كما أن الإسلام تسرب لإفريقيا عبر التجارة عن طريق ليبيا وهي أيضا مدخلا إلى المشرق العربي وإلى قلب العالم الإسلامي فمدن برقة وواحاتها كانت آخر مرحلة يقطعها ركب الحجاج والتجار المغاربة والأفارقة في طريقهم نحو المشرق والمقدسات إلا سلامية.

مسالك طرق القوافل والحج 12 منها تعبر مدن وواحات ليبية الأرقام من 15:8و29،21،20،19

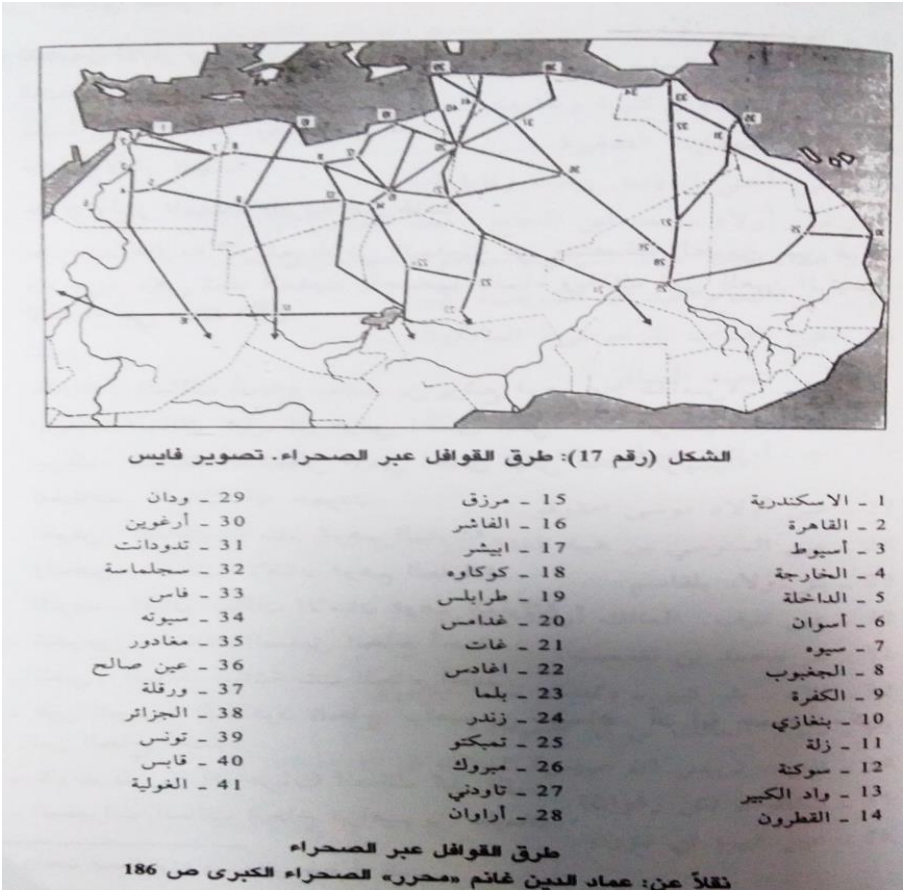

الشكل (رقم 17): طرق القوافل عبر الصحراء. تصوير فايس

1 ـ الاسكندرية	15 ـ مرزق	29 ـ ودان
2 ـ القاهرة	16 ـ الفاشر	30 ـ أرغوين
3 ـ أسيوط	17 ـ ابيشر	31 ـ تدودانت
4 ـ الخارجة	18 ـ كوكاوه	32 ـ سجلماسة
5 ـ الداخلة	19 ـ طرابلس	33 ـ فاس
6 ـ أسوان	20 ـ غدامس	34 ـ سبوته
7 ـ سيوه	21 ـ غات	35 ـ مغادور
8 ـ الجغبوب	22 ـ اغادس	36 ـ عين صالح
9 ـ الكفرة	23 ـ بلما	37 ـ ورقلة
10 ـ بنغازي	24 ـ زندر	38 ـ الجزائر
11 ـ زلة	25 ـ تمبكتو	39 ـ تونس
12 ـ سوكنة	26 ـ ميروك	40 ـ قابس
13 ـ واد الكبير	27 ـ تاودني	41 ـ الغولية
14 ـ القطرون	28 ـ أراوان	

طرق القوافل عبر الصحراء

نقلاً عن: عماد الدين غانم «محرر» الصحراء الكبرى ص 186

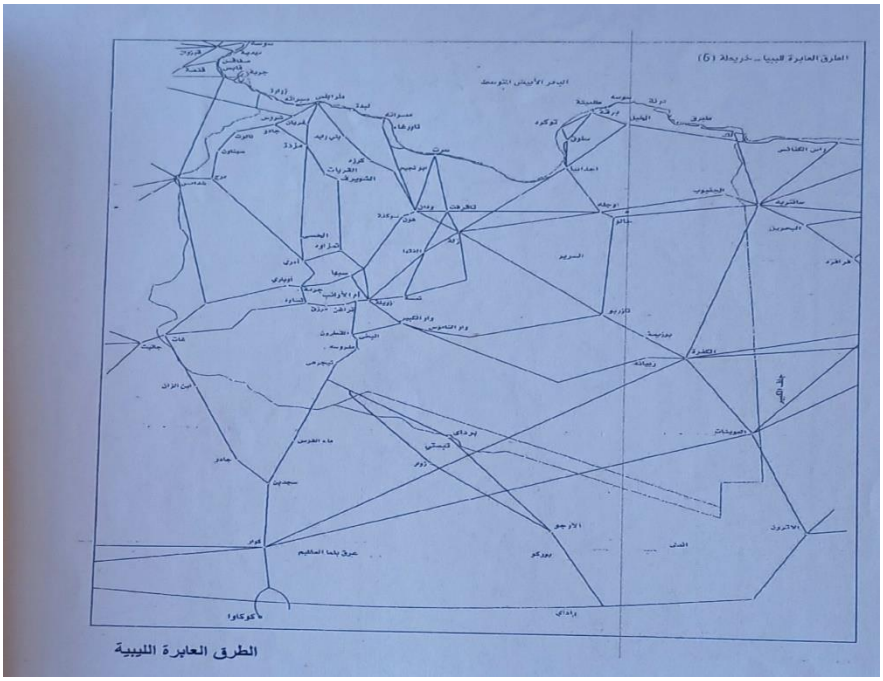

نقلاً عن جاك تيري. تاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى. ترجمة. جادالله عزوز الطلحي. مصراته. الدار الجماهيرية للنشر.2004م. ص654

ليبيا من حيث الشكل:

يقصد بشكل الدولة صورة الحدود السياسية التي استقرت عليها الدولة خلال تطورها التاريخي، وتعتبر ليبيا من ضمن الدول التي اكتسبت الشكل المنتظم (المندمج)، ففي هذا الشكل تكون أبعاد حدود الدولة شبه متساوية عندما نأخذ نقطة في وسط الدولة، ويعتبر هذا شكلاً مثالياً، فهو يساعد على انصهار السكان في بوثقة واحدة، كما تسهل فيه إنشاء شبكة المواصلات خاصةً إذا أُضيف إلى ذلك تمتع الدولة بتضاريس جيدة، وهذا ينطبق على ليبيا مما يُمكن الحكومة من التحكم في أجزاء الدولة، و يُعينُها على تقديم الخدمات بشكل أفضل[15].

أهمية موقع ليبيا:

إن إدراك أهمية موقع ليبيا كان في وقت مبكر، من قبل الجغرافيين والمؤرخين والرحالة الإغريق والرومان والمسلمين، تواصل ذلك عند المؤرخين والجغرافيين والرحالة والساسة العثمانيين والأوروبيين، عبر العصور لقد كان ذلك الإدراك نتيجة لتوفر بيئة مناسبة وملائمة للاستيطان البشري المبكر في ليبيا، الذي تواصل في القرون الوسطى والعصر الحديث.

إذاً الجميع أدرك أهمية موقع ليبيا، وقد خصها بعضهم بمؤلف خاص بها، والبعض الآخر ذكرها ضمن جغرافية أو تاريخ الأمم والمناطق المجاورة أو المقابلة لها، وإن أشهر من تحدث عن ليبيا المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس[16] والذي يُعرف القسم الرابع من كتابه باسم الكتاب الليبي، وقد سجل أصحاب المؤلفات والساسة انطباعاتهم بعبارات تُظهر آرائهم وتقديرهم لأهمية ليبيا بشكل عام، وأحيانا أهمية احد أقاليمها، وأهمية البُعدين الإقليمي والدولي الذي تقع فيه، كما أن الشعراء أشادوا بخيراتها.

إن الآراء والعبارات والانطباعات حول ليبيا كثيرة ومتعددة لذى سنكتفي بعرض نماذج منها.

ما أروع أرضك يا ليبيا وما أكثر مباهجها هناك يجود السلفيوم بعصيره في قورينا [17]

علينا أن ننظر إلى ولاية طرابلس الغرب بما يستحق موقعها في وسط البحر المتوسط[18].

إن الصحراء الليبية كونت خلال عصور طويلة أرض التقاء وعبور فريدة لا نظير لها في الأقاليم الواقعة بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر [19].

إن سلاماً متزامناً في برنو وطرابلس كان يعني توفر الظروف الملائمة لازدهار التجارة [20].

كان لموقع ليبيا الجغرافي الهام ابلغ الأثر في تاريخها[21] تتمتع ليبيا بمركز استراتيجي ممتاز جعلها محط أنظار الدول الكبرى[22] فزان نقطة تقاطع التجارة عبر الصحراء [23].

ولهذا إذا أردنا أن نفهم تاريخ السودان وتاريخ إفريقيا الغربية كمجموعة، يجب علينا أن ننظر شمالاً إلى الصحراء، وما يجاورها من بلاد المغرب، كما إننا إذا أردنا أن نفهم تاريخ المغرب، فينبغي أن ننظر بين الحين والآخر جنوباً إلى الصحراء وإلى السودان، وهذا يتيح تصوراً شاملاً لا تظهر فيه الصحراء حاجزاً بل كبحر يجمع ويربط شمال القارة بجنوبها[24].

تقييم موقع ليبيا وأهميته:

إن موقع الدولة يخضع لإعادة التقييم، إذا نظرنا اليه من ناحية الأهمية لأنه تظهر بين الحين والآخر، تطورات تطرأ على وسائل النقل والمواصلات والاتصالات، والتطور التكنولوجي والذي ينشأ عنه تغيير في الطرق البرية والممرات الملاحية[25] والخطوط الجوية، فقد تفقد الدولة أهميتها نتيجة لذلك وقد تحافظ عليها وأحياناً تزداد مع تلك التغيرات والتطورات، ولقياس ذلك فقد لاحظت أنه في ثنايا الجغرافية السياسية توجد معايي، من خلالها يمكن أن يتم تقييم أهمية موقع الدولة، وهي على النحو التالي:

1 . أن يكون للدولة منفذ بحري .

2 . سهولة رسو السفن على سواحلها.

3 . التمتع بمناخ جيد والافضل أن يكون متنوع .

4 . أن تكون حلقة ربط بين عدة دول.

5 . أن تتمتع بتضاريس جيدة تسمح بسهولة الحركة عبر اراضيها.

6 . قرب مصادر المياه من بعضها ووفرتها

7 . تزايد اهمية الموقع مع تقدم المواصلات والتكنولوجيا . .[26]

إن الغرض من استعراض هذه المعايير الجغرافية يظهر لنا الاجابة على السؤال الضمني وهو هل تنطبق هذه المعايير على ليبيا ؟

من خلال استعراضنا العام لموقع ليبيا، فإن المعايير اعلاه تجيب عليه بشكل واضح بنعم.

الموقع الفلكي والنسبي لليبيا :

تبرز عناصر الموقع الفلكي والنسبي في الآتي:

1 . الموقع بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض.

2 . الموقع بالنسبة للبحار والمحيطات .

3 . الموقع بالنسبة للدول المجاورة والمقابلة. [27]

تمتد ليبيا بين خطي طول 9ْ و25ْ شرقاً بينما يصل اقصى إمتداد لها باتجاه الجنوب دائرتي عرض 5ْ2 و8ْ1 وتعتبر دائرة عرض33° شمالاً الحد الأقصى لامتداد البلاد في هذا الاتجاه إن هذا التحديد يظهر اتساع رقعة الدولة فمساحتها وكما اسلفنا 1.665 .000 كيلومتر مربع، ومجموع أطوال حدودها 6500 كيلو متر مربع، منها 4600 كيلو متر حدود برية و1900 كيلو متر هو طول الشريط الساحلي الممتد بين بئر الرملة شرقاً ورأس الجدير غرباً [28].

يرى علماء الجغرافية السياسية أن الموقع بالنسبة لدوائر العرض، أهم بكثير من الموقع بالنسبة لخطوط الطول، وذلك لتأثيره على المساحة والمناخ فالمساحة تؤثر على الوزن الاقتصادي والسياسي للدولة، فكلما إزدادت المساحة وترابطت الاقاليم وتنوع

مناخها، فأن ذلك يؤثر بدوره في النشاط البشري ويزداد تنوع الانتاج الزراعي، ولهذا فإن موقع الدولة في العروض المعتدلة، في الغالب يجعلها متقدمة، وذلك لبعدها عن المناطق المدارية وشبه المدارية والمناطق القطبية، كما أن ترابط الاقاليم يسهل التواصل وتسويق الانتاج الزراعي، هذا إذا ما اضيف الى ذلك تروات طبيعية يحتوي عليها باطن الأرض[29] كما أن الدولة الواقعة على البحر أو المحيط، يساعدها على تحديد طبيعة مصالحها وحالتها الاقتصادية، والدور الذي تلعبه في مجال السياسة الدولية، عندما تمتلك زمام أمرها، وكما أسلفنا فإن ليبيا تقع في وسط الساحل الجنوبي لحوض البحر المتوسط، وتقابلها عدة دول أوروبية، مما يؤثر في نوع الدفاع الذي تعتمد عليه الدول، فالدول البحرية تركز اهتمامها على بناء الاساطيل التجارية والحربية والغواصات [30].

إن الموقع بالنسبة للدول المجاورة والمقابلة، يؤثر بشكل مباشرعلى الدولة وإن اهم اسسه الاستقرار السياسي، فعندما تكون الحدود البرية متعددة فهذا مما لاشك فيه يؤثر على الدولة من النواحي الامنية والاقتصادية، فالحدود عندما تكون مع دولة صديقة، فأن ذلك يعتبر ميزة حيث تنساب السلع والمواد الخام بينهما، وهذا مالمسناه في الدور المتميز الذي لعبته ليبيا عبر العصور، في فترات استقرارها السياسي، حيث عبرت القوافل الاراضي الليبية منذ العصور القديمة، وتزايدت بشكل كبير في القرون الوسطى والعصر الحديث، مما يدل عاى سهولة التنقل، فعند الإطلاع على كتابات الجغرافيين والرحالة نُدرك، إن ليبيا كانت مطروقة في جميع الاتجاهات.[31] وإن موانيها سهلت تبادل السلع والمنتجات بين الدول المجاورة والمقابلة.

إن تلك العناصر الطبيعية، كان لها بالغ الآثر في التجارة الدولية والعلاقات الانسانية والسياسية، ويبقى الاعتماد على العنصر البشري، حين يستفيد من العناصر

الطبيعية بشكل جيد، ففي حالة مايكون هذا العنصر، على إدراك تام بما وهبته له الطبيعة من خير، فيكثف نشاطه لاستثمار موقع بلاده، فينعكس ذلك في صور تحقيق التنمية في المجالات المرتبطة بالموقع .

إ نعكاس موقع ليبيا على تاريخها:

1. العصور القديمة.

2. القرون الوسطى.

3.العصر الحديث.

1.العصور القديمة في ليبيا:

وفر موقع ليبيا بيئة مناسبة، مما جعلها وجهة مفضلة للإستيطان البشري منذ اقدم العصور، فبالإضافة لحضارات الكهوف في الجبل الاخضر[32] والفن الصخري في فزان[33] تلته الحضارة الجرمية (1000 ق م) في فزان أيضا، التي اشار اليها المؤرخ الاغريقي الشهير هيردوث، عندما زار ليبيا خلال القرن الخامس قبل الميلاد، بأنها حضارة زراعية، ولا تزال (فقاراتهم) في وادي الآجال وواحات فزان، شاهدة على توسعهم في الزراعة.

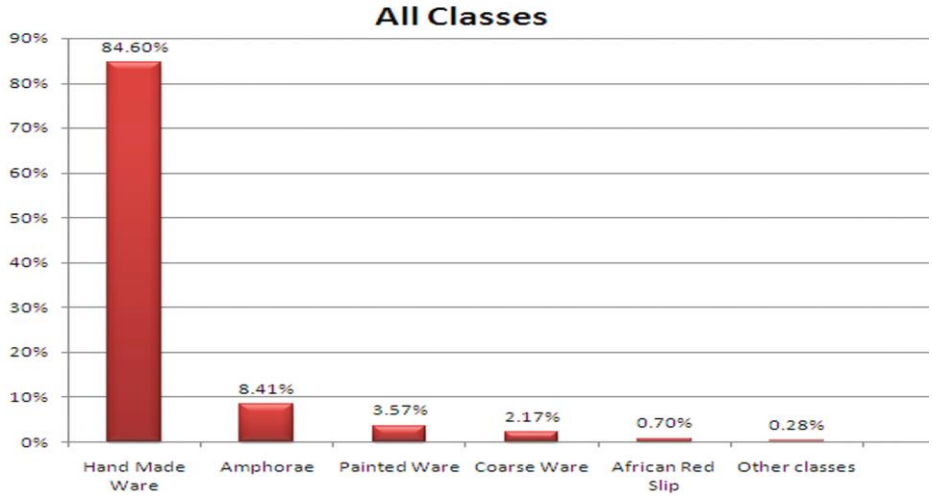

David Mattingly .p.68 3

كما استوطن الفنقيين الساحل الشمالي الغربي لليبيا في وقت مبكر (القرن السابع قبل الميلاد)[34] وأقاموا مستعمرات لهم في صبراتة وطرابلس ولبدة، ثم أعقبهم عليها الرومان واستوطن الإغريق الساحل الشمالي الشرقي في المدن الخمس سالفة الذكر، ومن المعلوم أن الحضارة الفرعونية، كانت على تماس مع القبائل الليبية التي كانت تقطن المناطق الشرقية، وقد تفاعلت معها إيجاباً وسلباً، وذلك من خلال التمازج الثقافي والفكري، الذي تمثل في الاشتراك في بعض الديانات، والتمازج الاجتماعي، الذي بلغ أوجه عندما أمسكت الأسرتين الثانية والثالثة والعشرون الليبيتين، بمقاليد الحكم في مصر، كما ان الآمر لم يخلوا من الصدام المسلح، فكانت الحروب سجال بينهم في بعض المراحل التاريخية، وأحيانا كان المصريون يساعدونهم في الحروب،التي نشبت بينهم وبين الوافدين الجدد من الإغريق. [35]

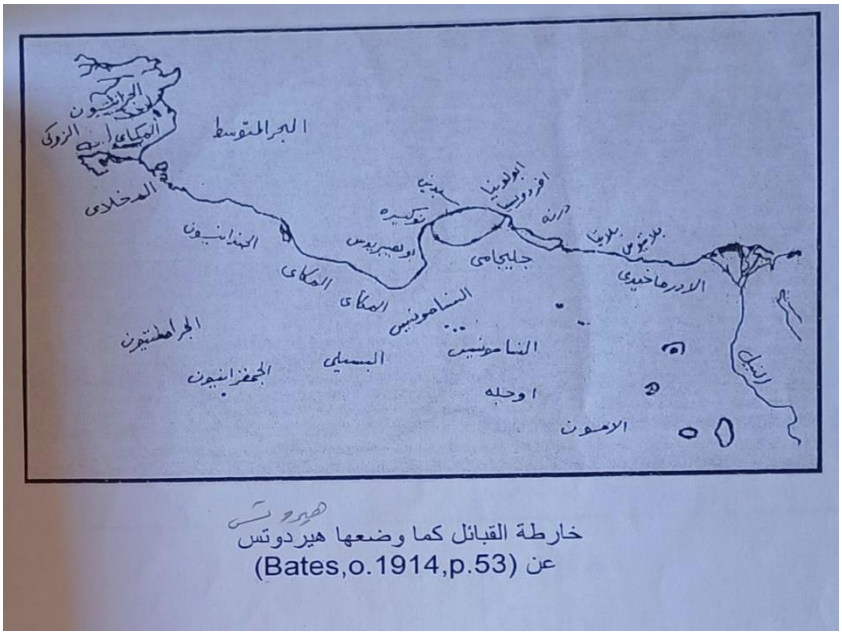

خارطة القبائل كما وضعها هيردوتس
عن (Bates,o.1914,p.53)

إن تلك الإحداث والتفاعلات المتلاحقة، تدل على أن موقع ليبيا شديد الحساسية، مما أثر بشكل واضح في تاريخها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي عبر العصور، فقد نشطت حركة الملاحة في الموانى الليبية في تلك العصور، وكانت السفن تنقل منتجات ومحاصيل الشمال الإفريقي للموانى الرومانية، وظهرت تلك الحضارات التي مرت على ليبيا بمظاهر سياسة متعددة لإدارة الحكم، وخلفت ورائها آثاراً عكست الجوانب الدينية والفكرية والثقافية والسياسية لتلك الحضارات، وذلك من حيث طقوس الديانات المختلفة والصيد وتنوع الأنشطة الحرفية والتجارية، والنشاط البحري الذي احتضنته الموانى الليبية، التي تتميز بأنها طبيعية، مما يجعلها مهيئة لرسو السفن بشكل سهل وسلس.

2.القرون الوسطى :

احتفظت ليبيا في العصور الوسطى بدورها، حيث بقيت حلقة وصل مهمة لما يدور في حوض البحر المتوسط من أحداث، وتفاعلات إقتصادية وثقافية وقد كانت الفتوحات الا سلامية، من أهم الاحداث التاريخية في بداية تلك العصور، فبعد فتح مصرتقدم عمرو بن العاص وقادته لفتح ليبيا في عام(22 هـ :642م) [36] ومنها إلى تونس وبقية دول المغرب، فأصبحت بذلك جسراً يربط المشرق بالمغرب، وتسرب الإسلام عن طريق التجار لإفريقيا عبر ليبيا.

لقد تراجع النشاط الملاحي في هذه الفترة،الا أنه لم يتوقف تماماً بل استمر بشكل محدود في ميناء طرابلس، وقد غلب عليه طابع الفتوحات، حيث عمل الحكام المسلمين على نشر الإسلام في جزر البحر المتوسط، مثل قبرص ورودس وصقلية عن طريق ميناء طرابلس ومواني دول المغرب المجاورة لها.

إن استقرار الفتح في بلاد المغرب ساعد على إستمرار تجارة القوافل وركب الحجاج، فالوصول من البحر المتوسط الى بلاد السودان عبر ليبيا يتميز بأنه اقصر الطرق، فالمسافة من سرت الى بحيرة تشاد (2100 ك م)، تقل عن الطريق تاهرت– غاو– فاس– غانا– بـ (1000ك م) وحتى وإن انطلقنا من طرابلس فأن الفرق في المسافة يبقى لصالح الطرق العابرة لليبيا التي تقل بـ (500ك م) عبر فزان،فقد كانت المسالك عبر غرب ليبيا من الساحل حتى تجرهي تقدم تتابعاً بديعاً من الواحات والآبار، دون أن نهمل الطريق عبر غات التي كانت تنقل بعض المنتجات وخاصة الذهب، اجمالاً كانت الطرق العابرة لفزان هي الطرق الرئسية لتصدير واستيراد البضائع من والى إفريقيا[37].

إن هذه الطرق حققت عوائد ضخمة للصحراء الليبية، في شكل رسوم عبورمن حركة التجارة وخاصة لمنتجي الشب والملح، اللذين كانا يباعان بكميات كبيرة الى الشرق حتى مصر، والى الغرب حتى وارقلة وبلدان المغرب الأخرى[38].

لعبة تجارة القوافل عبر العصور، دوراً مهماً في تاريخ ليبيا، فبالإضافة الى انعكاسها على الواقع الإقتصادي، فقد انعكست على الواقع الإجتماعي والثقافي، حيث أن بعض من مروا بليبيا آثروا البقاء، أما رغبة أو مضطربين، لمرض ألم به اوأن وضعه المادي لم يسمح له بمواصلت الرحلة، فقد انصهر هؤلاء جميعهم في النسيج الإجتماعي، ومما لاشك فيه أنهم أتوا يحملون معهم ثقافة، سواء أن كانت قريبة مما هو سائد اوبعيدة عنه، فأنهم تآثروا وأثروا في الواقع الثقافي في ليبيا، وكان يرافق تجار القوافل العلماء والفقهاء، الذين نهل من علمهم بعض علماء ليبيا، مثال ذلك ما اورده الرحالة التيجاني الذي زار ليبيا عام 706هـ : 6ـ1307م عن ابي اسحاق إبراهيم بن إسماعيل الاجدابي، الذي كانت له كتب ومؤلفات تنم عن فضله وسعة علمه، وهو لم تكن له رحلة لطلب العلم، فعندما سؤل من اين حظى بكل هذا العلم، أجاب لقد تلقيته من بابي هوارة وزناته[39] وهما بابان من ابواب طرابلس إذ لم يكن التجار يجلبون معهم سلعاً مادية فقط بل كان يرافقهم العلماء فينقلون المعرفة والثقافة ومفاهيم جديدة عن الحياة والعلوم الشرعية ومايتعلق بها من علوم أخرى أهمها اللغة واللفك وغيرهما واشكالاً جديدة من طرق التعليم وكلمات جديدة اغنت اللغات المحلية كما حملو معهم اساليب من الفن المعماري وحرفاً ومهارات جديدة ومحاصيل زراعية جديدة ايضاً [40] ويجب الانتباه الى أنه بالاضافة لتجارة القوافل كان يمر بليبيا ركب الحجاج وهو يحمل في طياته نسبياً ما تحمله تجارة القوافل.

3 .العصر الحديث :

لقد تطورت تجارة القوافل وازدادت مع العصور الحديثة، حين تحالف سلاطين أولاد محمد (أمحمد)، الذين حكموا فزان من مرزق منذ منتصف القرن السادس عشر الى 1813م، تحالفوا مع سلاطين الممالك الاسلامية في تشاد وشمال نيجيريا، واشرفوا على تنظيم تجارة القوافل، وضمانها بما وفروه لها من مراكز للراحة، واسواق للتبادل وقضاة لفض المنازعات وحراس للحماية، واستفادت هذه الاسرة من الضرائب والريع المفروضة على هذه التجارة، وقد ادرك الولاة العثمانيون في طرابلس التي دخلت تحت حكمهم في صيف 1551م، ادركوا اهمية السيطرة على الاقاليم الصحراوية، التي سوف تفتح امامهم الطرق التجارية الى افريقيا، حيث كان اقليم فزان بحكم موقعه أضخم وأهم سوق لتجارة القوافل[41].

كما نشط الغدامسيين في مجال هذه التجارة، فكان منهم التجار والوكلاْء التجاريين، وكذلك بعض أهالي المناطق الساحلية من ليبيا، مما وفر تبادل السلع والمنتجات الافريقية العابرة لليبيا، بالسلع والمنتجات الاوروبية الواردة على الموانى الليبية، وقد تبع السلع والمنتجات الاوروبية وجود التجار والوكلاء الاوروبيين ايضاً.

إن انفتاح الأوروبيين على ليبيا خلال العصر الحديث، جعلها تتعرض للتطورات والتجاذبات السياسية، التي تطراء على حوض البحر المتوسط، فقد وقعت تحت سيطرة الأسبان لعقدين من الزمن (1510:1530م)، وعندما فشلوا في إدارتها سلموها لفرسان مالطا (1530:1550 م).

طُبعت هذه الفترات التاريخية، ببروز الدولة العثمانية كإمبراطورية قوية، فقد تمكنت من فتح القسنطتية عاصمة الدولة البزنطية عام 1453م، كما انتزعت من

الأوروبيين الكثير من جزر البحر المتوسط، أهمها جزيرة رودس التي انتزعوها من فرسان القدسي يوحنا عام 1322م، وامتدت في أوربا حتى كانت جيوشها على أسوار فيينـــا عام 1529م، لذلك قام الأوروبيين بمواجهتها بـــما عـــرف بالمسألة الشرقية[42]، حيث تمكنوا من إنهاكها وأخرجوها من أوروبا، ولم يكتفوا بذلك بل بداؤ في انتزاع ممتلكاتها، وجاء الدور على الدول العربية منذ بداية القرن 19م.

تخلل ذلك دخول متغير آخر تمثل في الرحلات الاستكشافية، التي قام بها الاوروبيين خلال القرنين 18 : 19م، كان اغلبهم من الايطاليين والالمان والفرنسيس والانجليز، فقد رافق بعضهم القوافل، بينما جهز بعضهم مفرزة صغيرة، ويتخذ دليلا، وبعض الرجال للاهتمام بالجمال، وخلال ترحالهم كانوا يهتمون بوصف مايمرون به من اماكن وصفاً جيداً، بعضهم يرسمون مايشاهدونه من المعالم مثل القلاع والاسواق، وقاموا ايضاً بدراسة التضاريس والظواهر الطبيعية وقياس الطقس، فبعضهم كانت معه اجهزة لقياس درجات الحرارة، كما اهتموا بدراسة النباتات والاعشاب، وقد كانت ملاحظاتهم ودراساتهم إجمالاً جيدة، غير أنهم عندما يتحدثون عن الجوانب الاجتماعية والثقافية، والأحداث التاريخية فعندما يقتصرون على الوصف، والنقل عن الرواة فغالباً ما يكونون قريبين من الواقع، اما إذا حاولوا تسجيل انطباعاتهم وتصوراتهم الشخصية، فغالباً مايقعون في أخطاء ومغالطات حتى أنه يلتبس عليك الآمر، هل كان ذلك مقصوداً ؟ ام هو ناتج عن اختلاف الثقافة؟

وكما أسلفنا بـــأن الـــدول الاوروبية، تـمكنت من انـتـزاع ممتلكات الدولة العثمانية، ودخلت في تنافس محموم لإحتلال تلك الدول، فلم تكن ليبيا بعيدة عن تلك الأحـــداث، فبعـد الوجود العـثمانـــي (1550:1911م)، تعرضت للاستعمارالايطالي

(1911:1940م)، ودخلت خلال الحرب العالمية الثانية تحت الإدارة البريطانية في الشرق والغرب والوسط (1940:1951م)، والإدراة الفرنسية في فزان وغدامس (1940:1957م)، وكان دخولها تحت الإدارتين بعد أن شهدت الاراضي الليبية الحدودية مع مصرفي الشرق، مواجهات عنفية بين القوى الاوروبية المتنازعة خلال الحرب العالمية الثانية، فكانت مسرحاً للعمليات الحربية، ومثلث الجبهة الليبية المصرية، احدى الادوار الحاسمة في نتيجة الحرب، حيث انهزم الالمان والايطاليين، في مواجهات سيدي البراني والعلمين، ولاحقتهم القوات البريطانية الى الاراضي التونسية، وبعد أن وضعت الحرب اوزارها، تزايدالإدراك بأهمية موقع ليبيا، ولذلك عملت كل من بريطانيا وأمريكا على الاحتفاظ بقاعدتين عسكريتين، اللتين تم إنشاؤهما في ليبيا، أثناء الحرب العالمية الثانية، فكانت القاعدة البريطانية في طبرق والقاعدة الامريكية في طرابلس وبعد إنتهاء الإدارة البريطانية، بموجب استقلال ليبيا 1951.12.24م، استمر وجود القاعدتان البريطانية والامريكية، فكانت تسمى القاعدة البريطانية العدم واستمرت بموجب معاهدة الصداقة والتحالف الانجليزية الليبية 1953.10.31م، ونصت المادة (35) على أن مدة الاتفاقية (20) سنة، إلا إذا عدلت او بدلت باتفاق الحكومتين، ويعاد النظر في الاتفاقية خلال (10) سنوات، وإذا بقيت الاتفاقية يجوز لأي من الحكومتين، قبل إنتهاء (19) سنة أن تُشعر بالطرق الدبلوماسية الحكومة الأُخرى بإنهائها [43]، أما الأمريكية فقد استمرت أيضاً في البقاء بعد الاستقلال، وحملت أسم الضابط ألامريكي (ويلز)، وكان ذلك بموجب الاتفاقية العسكرية، التي عُقدت بين حكومة المملكة الليبية المتحدة، وحكومة الولايات المتحدة الامريكية، بتاريخ 1954.9.9م ونصت المادة (30) من

الاتفاقية، أن يستمر العمل بهذه الإتفاقية بعد ذلك التاريخ إلى أن تُشعر إحدى الحكومتين الأُخرى بإنهائها، وفي هذه الحالة ينتهي العمل بها بعد مرور سنة من تسلم الإشعار[44].

إن موقع ليبيا له قيمة مضاعفة، فبقاء القواعد بعد الإستقلال، و تأجيرها كان إستثماراً مادياً للموقع الجغرافي[45]، لكي يكمل الموارد الطبيعية المحدودة في ذلك الوقت، فموقع ليبيا الاستراتيجي يُمكن من السيطرة على شرايين المواصلات في البحر المتوسط، ويُمكن من الزحف يميناً إلى الشرق الأوسط ويساراً على شمال إفريقيا[46].

تجدر الإشارة إلى إن تنافساً محموماً، حدث بين دول الحلفاء، للسيطرة على طرابلس، تمثل ذلك في رغبة روسيا وامريكا في السيطرة على طرابلس، وقد وصل الامر بروسيا إلى حد مطالبتها بالوصاية على ليبيا[47]، وعلى الرغم من أن ايطاليا من دول المحور وهي الدول التي خسرت الحرب العالمية الثانية، الا أنها انضمت الى ذلك التنافس، بإدعائها بأن لها حق تاريخي في طرابلس، مما دفع ببريطانيا المسيطرة على طرابلس الي أن تدعم فكرة استقلال ليبيا، عن طريق الأمم المتحدة اعتماداً على علاقاتها الجيدة بالسيد محمد ادريس السنوسي وبعض القوى الوطنية، مما يتيح لها البقاء في ليبيا، وحتى إذا إضطرت للخروج منها فإنها ضامنة لبقائها ضمن مناطق النفوذ البريطاني، ويدلنا هذا التنافس على أن موقع ليبيا في الحوض الاوسط للبحر المتوسط، وعلى ضفته الجنوبية، يمثل أهمية إستراتيجية كبيرة للسيطرة والمراقبة للانشطة البحرية، التي تدور في سواحل شمال إفريقيا وجنوب أوروبا[48].

إن المناطق التي لها هذه الاهمية، تسارع الدول للسيطرة عليها، او إقامة علاقة جيدة معها، لما لها من مميزات إقتصادية وحربية مؤثرة، فهي تتحكم في وقت السلم في الحركة التجارية، وفي وقت الحرب يستفاد منها في إنشاء القواعد الحربية[49].

الهوامش:

[1]) فرنسو اشاموا. الإغريق في برقة الأسطورة والتاريخ. ترجمة محمد عبدالكريم الوافي. بنغازي: جامعة قاريونس. 1990م. ص67 : 104.

[2]) المدن الخمس: بنغازي، توكرة، المرج، شحات، وسوسة.

[3]) فرنسوا شامو. مصدر سابق. ص 21، 22.

[4]) عبدالعزيز شرف طريح. جغرافية ليبيا. الاسكندرية: مركز الاسكندرية للكتاب. ط3. 1996م ص1. اتوري روسي. ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م. ترجمة. خليفة محمد التليسي.. بيروت: دار الثقافة. 1974م. ص23.

[5]) جمال حمدان. الجمهورية العربية الليبية دراسة في الجغرافية السياسية. القاهرة: عالم الكتب. 1973م ص 72.

[6]) الهادي مصطفى ابولقمة (مدخل عام) الهادي مصطفى ابولقمة وسعد خليل القزيري (محرران). الجماهيرية دراسة في الجغرافية. سرت: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان. 1995. ص13.

[7]) مجلس التطوير الاقتصادي. التقرير الوطني الأول لحالة السكان في ليبيا، 2010، ص4 ص 139.

[8]) عبدالعزيز طريح شرف. المرجع السابق. ص4, 5، أنظر الملحق الخريطة رقم1.

[9]) محمد محمود إبراهيم الديب. الجغرافية السياسية. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية. 1979. ص9.

[10]) علي فهمي خشيم. نصوص ليبيا. سرت: المؤسسة العامة للثقافة. 2009م. ص151.

[11]) سالم محمد عبدالله هويدي. الحضارة الجرمية دراسة في عوامل النشؤ والازدهار. طرابلس: المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخة. 2010م .225.

[12]) جوردن ايست. الجغرافية توجه التاريخ. ترجمة،جمال الدين الدناصوري. بيروت: دار الحداثة. ط2. 1982م. ص8.

[13]) انظر الملحق الخريطة رقم. 4،5.

[14]) انظر الملحق الخريطة رقم. 4.

[15]) محمد عبد المجيد عامر. دراسات في الجغرافية السياسية أسس وتطبيقات. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية. د.ت. ص 173، 174.

[16]) عرف هيردوتس بأنه ابو التاريخ وذلك لأنه أول من صنف كتاباً جمع فيه ما دار من أحداث قبله وفي أيامه بقصد ايصا لها للأجيال التي بعده. للمزيد انظر. علي فهمي خشييم. مرجع سابق. ص 15: 70.

[17]) الشاعر الروماني كاتلوس. نقلاً عن علي فهمي خشيم. المرجع السابق. ص123.

[18]) عبدالقادر جامي. من طرابلس الغرب الى الصحراء الكبرى. ترجمة. محمد الاسطى. طرابلس: دار المصراتي. 1974م. ص 9.

[19]) جاك تيري. الصحراء الليبية في القرون الوسطى. ترجمة جاد الله عزوز الطلحي. مصراته. الدار الجماهيرية للنشر. 2004م ص 11.

[20]) جان كلود زلتز. طرابلس الغرب. ص 65.

[21]) رجب عبدالحميد الاثرم. مرجع سابق. ص 11.

[22]) هنري انيس ميخائيل. العلاقات الانجليزية الليبية مع تحليل المعاهدة الانجليزية الليبية. القاهرة. الهيئة العامة للتأليف والنشر. 1970 م. ص5.

[23]) زلتز. مرجع سابق. ص 338.

[24]) بوفيل. تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير. ترجمة. الهادي ابولقمة، محمد عزيز. بنغازي: جامعة قاريونس 1988م. ص 18.

[25]) مثال ذلك السفن فقد كانت شراعية ثم أصبحت بخارية وهذا يعني أنها لن تحتاج للموانى القريبة إلا في حالات الطواري فقط.

[26]) محمد محمود ابراهيم الديب. المرجع السابق. ص 47: 108.،

محمد عبدالمجيد عامر. دراسات في الجغرافية السياية أسس وتطبيقات. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. دت. ص27: 194.، محمد رياض. الجغرافية السياسية والجيو

بولتيكا مع دراسة تطبقية للشرق الأوسط. بيروت: دار النهضة. ط2 1989م. ص113: 122.

[27]) محمد محمود ابراهيم الديب. مرجع سابق. ص48.

[28]) الهادي مصطفى أبولقمة. (مدخل عام). الهادي مصطفى ابولقمة وسعد خليل القزيري. (محرران) المرجع السابق. ص17، محمد محمود ابراهيم الديب. المرجع السابق. ص9، المجلس التطوير الاقتصادي، حالة السكان في ليبيا، المرجع السابق ص 4.

[29]) المرجع نفسه. ص 48.

[30]) المرجع نفسه. ص 52، 53.

[31]) محمد حسين التركي. براك الشاطي خلال العهدين القرمانلي والعثماني الثاني. رسالة ماجستير غير منشورة. ص8.

[32]) داود حلاق. اوشاز الاسلاف. طرابلس: مصلحة الاثار. 1989م. ص 93.

[33]) فابريتشيو موري. تادرارت اكاكوس الفن الصخري وثاقفات الصحراء قبل التاريخ. طرابلس: مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. 1988م ص 25، 26.

[34]) عبدالحفيظ فضيل الميار. الحضارة الفنيقية في ليبيا. طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية .2001م. ص116.

[35]) علي فهمي خشيم. نصوص ليبية. سرت: المؤسسة العامة للثقافة. 2009م. 37،38.، رجب عبدالحميد الاثرم. محاضرات في تاريخ ليبية القديمة. بنغازي: جامعة قاريونس. ط3 .1998م ص 111،112.

[36]) صالح مصطفى مفتاح. ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر. مصراته: الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان. 1978م ص 28.

[37]) جاك تيري. المصدر السابق . ص 574، 575 .، ن .أ. بروشين. تاريخ ليبيا من نهاية القر ن التاسع عشر حتى عام 1969م. طرابلس: مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. 1988م ص36.

[38]) جاك تيري. مصدر سابق. 552.

[39]) محمد يونس نجم، إحسان عباس. ليبيا في كتب الجغرافية والرحلات. بنغازي: دار ليبيا للنشر والتوزيع. 1968م ص 159،158.

[40]) بوفيل. مرجع سابق. ص 18.

[41]) H.W. EL-Hesnawi. Fazzan under the Rule of the Aulad Muhammed. Sabha 1990 p.27

[42]) عرفت مقاومة الأوروبيين للتغلغل العثماني في أوروبا بالمسألة الشرقية والتي كان الهدف منها في البداية إخراج العثمانيين من أوروبا ثم تطور مفهوم تلك المسألة وأصبح يهدف إلى القضاء على الدولة العثمانية واقتسام ممتلكاتها وقد تمكن الأوروبيين من ذلك في أواخر القرن التاسع عشر.

[43]) هنري أنيس ميخائيل. مرجع سابق. ص 368.

[44]) مجيد خدوري. مرجع سابق. ص 484.

[45]) مما لاشك فيه أن وجود القواعد الأجنبية ينتقص من السيادة على الرغم من أن بعض نصوص المواد تشير بشكل واضح إلى احترام السيادة الليبية ونحن هنا لانبررغير أن الأمر لا بد من إن ينظر إليه في سياقاتهي التاريخية والاقتصادية والسياسية.

[46]) Nevill Barbur Asurvey of North West Africa (The Majhrib) 1958 p342 نقلاً عن جمال حمدان. مرجع سابق. ص 94.

[47]) مجيد خد وري. ليبيا الحديثة دراسة في تطورها السياسي. ترجمة، نقولا زيادة. بيروت: دار الثقافة. 1968م. ص278م.

[48]) عبدالعزيز طريح شرف. مرجع سابق. ص9:5.

[49]) محمد محمود إبراهيم الديب. الجغرافية السياسية. القاهرة: مكتبة الانجلو مصرية. 1979م. ص 61.